تمهيد

كيف تنهض مصر من كبوتها؟!

مصر ـ الأبناء ـ تتدهور، حيث ازداد الأبناء فقراً، وقُضى على احتمالات الصعود.. سبق أن صعد كثيرون من أبناء الطبقة الوسطى والدنيا إلى أعلى درجات الوزارة والقضاء والإدارة والجيش، بتأثير الاتجاهات الاشتراكية الناصرية التى احترمَتْ الانتخاب الطبيعى وصعود الأصلح.

وتختلف التوجهات الآن، وطغَتْ «المحسوبية» والفساد والمال، وضاع الانتخاب الطبيعى، ولم تعد الفرصة متاحة لصعود الأصلح، بل هوى الأصلح لقاع المجتمع، وصعد «المسنودون» ومن بيدهم السلطة والمال والنفوذ.

ومصر «الحفدة» سوف تضيع أكثر، لو استمرت اتجاهات السلطة والسياسة والمجتمع على ما هى عليه.

ويرى جمال حمدان فى حديثه عن أزمة مصر الحقيقية[1]: «وسواء كانت مصر أمّ الدنيا أو أمّ الدكتاتورية، أو كان حاكم مصر هو أقدم أمراضها، كما يذهب البعض، فلا شك فى أن الدكتاتورية هى النقطة السوداء فى شخصية مصر، وهى منبع كل السلبيات المتوغلة فى الشخصية المصرية، ليس على مستوى الحاكم والقيادة السياسية فقط، بل وعلى مستوى

(١) شخصية مصر. عالم الكتب ١٩٨٠ ص ٤٤.

الأفراد.. وقد تغيرّت مصر، إلاّ نظام الحكم الاستبدادى المطلق والفرعونية السياسية، التى تشكّلت الآن فى صورة ملفقة هى «الديمو دكتاتورية» أو الديموقراطية الشرقيّة.. ومن المؤكّد أن مصر المعاصرة لن تتغيرّ ولن تتطوّر، إلى دولة عصرية وشعب حرّ إلاّ حين تُدْفَن الفرعونيّة السياسية».

إنّ هؤلاء الذين يُرهِبُونِ أو يقتلون من يختلف معهم فى الرأى، لا يقلّون استبداداً عن الملوك، الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ تاريخها القديم وحتى اليوم.

المفكّر والقصّاص الانجليزى سباتيان فيلكس، يكتب فى «الديلى تلجراف» الإنجليزية ويقول: «صار الإسلام قيداً على المجتمعات العربية والإسلامية، فبينما نحن ـ المسيحيين ـ نَسْتطيع توجيه النقد للعهدين القديم والجديد (التوراة – الإنجيل)، الأمر الذى مكّن المجتمعات الأوربية من النموّ اللبرالى، وحيث استطعنا تجاوز المُقَدَّس الكهنوتى، منذ أواخر العصور الوسطى، فإن كهنة الإسلام قد حَرَمُوا مجتمعاتهم من التجديد واللبرالية.. وظل المقدّس الإسلامى، كما كان منذ فجر الإسلام.. فالقرآن ـ بالنسبة للمسلمين ـ غيرُ قابل للنقد، لأنه «كلام الله».. وهكذا حُرِم المسلمون منذ القديم، من النظر إلى متن القرآن باعتباره قابلا لإعادة التفسير والحذف للتلاؤم مع تعاقب العصور وتغيّر الظروف».

«إن المجتمعات البدائية، التى عُثِر عليها فى أمريكا واستراليا إبّان الكشوف الجغرافية كانت فى حالة متخلفة مزرية عنّا نحن بشر العالم القديم، وأكبر سبب فى تخلّف هذه المجتمعات، هو عدم قدرتهم على تفسير المقدس أو تغييره بما يتفق مع تقدّم حركة مجتمعاتهم.. وهكذا ظلوا

على حياتهم البدائية يدورون فى دائرة مغلقة.. وظلّ «الرّجل السماوى الكبير» (الله) يلزمهم بالتضحية البشرية، والانصراف إلى طقوس دينية صوفيّة اعتكافية، تحول دون تقدّم مجتمعاتهم... وشئٌ كثير من هذا لا يزال يلحق بالمقدس الإسلامى».. فالهنود الحمر كانوا متخلفين عن زمان أواخر العصور الوسطى المسيحية، ونحن ـ للأسف ـ هنود هذا الزمان.

كان الناس فى أوربا فى أواخر العصور الوسطى، لا يزالون يؤمنون ببحر الظلمات وبأعمدة هرقل، التى تفصل بين عالم وعالم، ولما سُئِل أبو الوليد ابن رشد عن رأيه فى ذلك، قال: «إن خلف هذا البحر بحارا وبحارا، وجُزرا وأمما من جنسنا.. ولا وجود للجن والشياطين والعفاريت والمردة فى بحر الظلمات...» ولهذا كان الأسبان والبرتغل (ورثة الأندلس وابن رشد) هم سادة الكشوف الجغرافية، التى كشفت لنا عن الأمريكتين واستراليا وجزر الأوقيانوس العظيم.

قُلْتُ لصديق أسبانى (كان يدرس العربيّة فى القاهرة): «إن ملامحك عربية، حتى أنك إذا مَشَيْتَ فى شوارع بغداد ودمشق (وكذلك القاهرة) فلن يستطيع أحد أن يميّز بينك وبين الناس فى الطريق». فردّ قائلا: «تحدّث سِرفانتيس فى مقدمته لقصته الشهيرة «دون كيخوتا»، أو دون كيشوت كما تنطقون باسمها فى العربية، عن الأسبان المورسكيين، الذين انحدروا من السلالة العربية، وهم غالبية الأسبان والبرتغال الموجودين الآن، والذين تنطق ملامحهم بأصولهم العربية» ثم ابتسم الرجل معتذراً وأردف: «نشكر الظروف التى أخرجت الإسلام من شبه جزيرة أيبريا (الأندلس) وإلاّ كان مصير أسبانيا والبرتغال كمصير العرب والمسلمين الآن، حيث يمرّون بحالة

من التدهور والغيبوبة، حتى أن الغرب استطاع أن يحتل فلسطين وعوّض بها اليهود عن «هولوكوست» الألمان، كما تمكن الغرب ـ باستلاب فلسطين ـ من الفصل بين عرب آسيا وعرب أفريقيا للإجهاز على حلم ناصر بالوحدة العربية». ثم قال: «كنت وأنا شاب، أتصوّر أن تريليونات الدولارات من البترول العربى، ستعيد للعرب قوتهم وحلم ناصر فى ولايات عربية متحدة، لكنْ اكتشفْتُ أن ثمن البترول العربى يُبَدّدُ ولا يؤدى إلى تقدّم العرب، بل أدّى إى ضياع الريادة العربية من مصر، التى أشعر من قراءاتى أن بها ليبرالية وحركة علمية تقدمية، بدليل حصول كثيرين من المصريين على جائزة نوبل.. ضاعت ريادة مصر، وحل محلها ريادة الكهنة وشيوخ القبائل ومراجع المذاهب الإسلامية المتناحرة».

يُرَدَّدُ ـ دون وعى ـ أن الشعب المصرى شعبٌ متدين؛ والحقيقة الساطعة أن المصريين، من خلال تاريخهم الطويل، لا يؤمنون إلا بما يؤمن به حاكمهم أو كاهنهم.. كانت العقائد المصرية القديمة هى أساس عقيدة موسى والعهد القديم.. ومصر ـ كذلك ـ هى المسئولة ـ بحكامها وكهنتها ـ عن العهد الجديد والمسيحية التى حاربتها الدولة الرومانية واحتضنتها مصر.

مصر آوت الصغير موسى (مس اسم مصرى بمعنى ابن أو ربيب أو وليد، تأتى مكبرّة «مُس» التى نراها فى تحوت مُس تحتمس، ومصغرة «موسيس» التى نراها فى راموسيس، أى رمسيس، ويحاول كهنة العهد القديم والجديد إبعاد أو استبعاد دور مصر، فيدّعون أن موسى تعنى «موسيشيس» أى «أنقذته من الماء» وهو ادعاء يخالف الحقيقة التاريخية واللغوية) كذلك فإن مصر ـ أيضا ـ آوت الطفل يسوع الناصرى وأمّه مريم ويوسف النجار، فى

رحلة الهروب بالطفل خوفا عليه من القتل.

ولما جاء الإسلام إلى مصر بجيوشه الجرّارة، دخل معظم المصريين، فى دين الله أفواجاً فرارا من الجزية، وخضوعا للحاكم العسكرى الإسلامى. وصار المصريون المسلمون تابعين للمذهب السنّى.. ثم غزا المعز لدين الله الفاطمى مصر وحوّلها إلى المذهب الشيعى، وأقيم الأزهر فى قاهرة المعز، بيتا للمذهب الشيعى.. ثم سيطر صلاح الدين الكردى السنّى على مصر، وأعادها من جديد للمذهب السنّى.. فهل هذا التاريخ من التحوّلات الدينية يجيز لنا وصف الشعب المصرى بأنه شعب متدين؟!

المتفق عليه بين دارسى الأنثروبولوجى (علم الإنسان) وعلم النفس الاجتماعى أنّ البنية الدنيا لأية جماعة (الزراعة - الحرف - التجارة - الأدوات) تؤدى إلى بنية عليا ثقافية (دين وقانون وفنون...) ولكنّ الملاحظ - فى تاريخ مصر - أن ملوكها هم الذين يغيّرون البُنَى العلوية، بصرف النظر عن البُنَى التحتيّة أو الدنْيا.

أضِفْ إلى ما تقدّم، أن نسبة كبيرة من المشتغلين بالدين، خَرجوا من بيئات وظروف خاصة تجعلهم يميلون إلى الارتزاق بالدين، ويبتعدون كثيرا عن الإيمان الصُّلب بالمبادئ، ويميلون - أكثر - إلى الإيمان بما فيه مصالحهم «الدنيويّة»:

١- الشيخ أحمد الدِّيَرْبى[١] (١٧٣٨م) له كتاب «فتح الملك المجيد لنفع العبيد» وكان كتابا مشهورا، بين دجّالى ذلك الزمان باسم «مجرَّبات

(١) كل ما ذكرته هنا منقول عن وثائق (فى زمن محمد على وأبنائه حتى فؤاد الأول) ومحفوظة الآن فى مكتبة جامعة القاهرة.

obeikan.com

الدِّيَربى » حيث خلط الديربى بين الدين والميثولوجيا والوصفات الطبيّة، وتحدث فى كتابه عن « فوائد مجرّبة لسورة يّس »، وخواصّ آية الكرسى، وتحدث كذلك عن مساعدة المرأة المتعثرة فى الولادة، كما تحدّث عن: « الطريقة المُثْلى لمعرفة أن المرأة حامل أمْ لا ».

٢- الشيخ أحمد الدمنهورى (١٧٧٨م) وله « القول الأقرب فى علاج لسع العقرب » وتحدّث فيه عن الوصفات المجرّبة، وأسرار الأحجبة والتمائم وبعض الآيات القرآنية الحافظة.. وله أيضا كتاب « القول الصريح فى علم التشريح » ويذكر فيه أن للقلب بطنين: الأيمن مملوء بالدم، والأيسر مملوء بالروح!! (مع أن هارفى مكتشف الدورة الدموية وتجاويف القلب سابق بعشرات السنين عن الدمنهورى).. وللدمنهورى أيضاً: « الكلام اليسير فى علاج المقعدة والبواسير »، ويعتمد فيه على بعض الآيات القرآنية والدّجل الشعبى والوصفات.

٣- داوُد الأنطاكى وهو مصرى سورى صاحب « تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب » المشهور بين الدّجالين باسم « تذكرة داوود »، ويخلط فيه بين تجارب العوام، والوصفات البلدية، وشعوذة بعض رجال الدين.

ولم يحدث تقدم طبى علمى فى مصر إلا فى زمن محمد على، حين أنشأ مدرسة الطب بمساعدة كلوت بك، ونقل الطب الأوربى (المعتمد على ابن سينا والرازى) إلى مصر... وأدرك « محمد على باشا » الأمّى، حتى فى لغته التركية، قيمة العلم والتقدم، وبدأ بناء مصر الحديثة.. ولم يكتفِ شيوخ الإسلام بهذا الفساد العلمى، بل أسهموا فى الفساد السياسى:

١- البيّوميون (أصلها فى المصرية القديمة « باجيوم.. وتعنى البحريين

والخطافين) وهو وصف أطلقه المصريون منذ أوزيريس على عصابات جُزُر بحيرة المنزلة، وهم من بدو سيناء والعبيد الآبقين والقراصنة الأوربيين، والهاربين من السخرة على السفن.. وقد ذكر تفصيلات عنهم «إميل لودڤيج» فى «حياة نهر النيل» عاشوا على الإغارة على حدود مصر الشمالية الشرقية، جنوب بحيرة المنزلة، يسرقون الحيوانات والأقوات والنساء والأطفال، وأُعجب بهم العامّة وبحياتهم القائمة على المغامرة.. ولا يزال لقب البيومى حاضرا بيننا، وكانوا كرماء، كعادة معظم اللصوص.. زارهم كثيرون من شيوخ الأزهر وأفْتوْا لهم بأن البيوميين «جهادية» يدافعون عن شمال مصر الشرقى.(١)

٢- وتشير الوثائق المحفوظة بجامعة القاهرة إلى حدوث صراع عثمانلى بين الوالى والمنشقّ العثمانلى أفْرَنْج أحمد، ويروى على الشاذلى، مؤرخ المرحلة، أن «بعض الشيوخ باع الفتاوى للجانبين» مما أدّى إلى اشتداد الفتنة، ثم هُزِم أفرنج أحمد ونُفِىَ، ونُفِىَ أيضا بعض شيوخ الأزهر الذين أيّدوه».

٣- وتشير هذه الوثائق أيضا، أن الشيخ عبد الله الشبراوى (تولى مشيخة الأزهر ١٧٢٥م) كتب تاريخا يمالئ فيه السلطان سليم، بعد احتلاله لمصر ويقول فيه: «أقام السلطان سليم فى الشام، ثم رحل بجيوشه إلى مصر، وكان يتسلطن على مصر الأشرف طومان باى، الذى رأى الرسول فى منامه، وقال له الرسول: أنت ضيفُنا بعد ثلاث.. فخلع طومان باى

(١) وثائق جامعة القاهرة.

عُدّة الحرب وسلّم نفسه للسلطان سليم، الذى ذبحه وعلّقه على باب زويلة».

٤- كان المماليك والجنود العثمانية يهاجمون حمّامات النساء ويغتصبونهن، ويسرقون الأطفال وينهبون ويخطفون.. وتجمّع كثيرون من أهالى المحروسة (مصر) بعد صلوات الجُمَع، وطلبوا مساعدة المشايخ ذوى الصلة بالوالى والقوّاد.. ولكنّ المشايخ «هرولوا إلى بيوتهم».

٥- معظم مشايخ الأزهر اشتركوا فى «الديوان» الذى أنشأته الحملة الفرنسية (وثائق جامعة القاهرة) وكان الجبرتى معجبا بطريقة محاكمة سليمان الحلبى (السورى الذى قتل كليبر)... وبعد رحيل الحملة، حاول الجبرتى إبعاد شبهة تعاونه مع الفرنسيين، فكتب «مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس» يقول فيه للوالى العثمانى، بعد زوال الحملة: «حمداً لله الذى جعل كلمة الذين كفروا السُّفلى، وكلمةُ الله هى العليا، وجعل الدولة العثمانية والمملكة الخاقانية بهجة الدين والدنيا، لقد استنارت بمقدمكم البلاد وابتهج بالسرور جميع العباد».

٦- ويُتهّم الشيخ عبد الله الشبراوى بنفس تهمة الجبرتى، فيسلك نفس السلوك، فيهاجم الفرنسيس، ويقول عنهم: «.. هم طائفة يقال لهم نصارى القاثوليق (الكاثوليك) يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً، وينكرون البعث والآخرة وبعثة الأنبياء»... ثم يكتب الشيخ عبد الله الشبراوى «تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين» ويهدى كتابه إلى يوسف ضيا باشا أول الولاة بعد الحملة الفرنسية، وآخرهم حيث يستولى محمدعلى باشا على مصر، ويحوّلها إلى مملكة وراثية، بفتوى الشيوخ،

الذين أجازوا له الملكيّة الوراثية.. وتقول وثيقة من وثائق جامعة القاهرة: «وكان الباشا خبيرا فى البراطيل، والبراطيل جمع عربى «للبُرْطُل»، وهى فرسية تركية معرّبة، تعنى القلنسوة (الطاقية) توضع على الرأس تحميها من الشمس، ويوضع «رفرفها» على العينين لحمايتهما من الشمس، وأُستُعيرَتْ «البَرْطَلَةُ» بمعنى الرشوة، حيث إن الرشوة يُوارى بها عن الحق...».

ولا تزال الأقلام المعتوهة تمرح فى الساحة، ولا يزال حجم الإرسال الدينى مبالغاً فيه، وتكتب تلك الأقلام مهتمّة بمصالحها الضيّقة، دون ما نظر للأخذ بيد مصر من كبوتها الفكرية الثقافية الاجتماعية.. بل لا نُبالغ إذا قلنا: إن هذه الأقلام من أهم أسباب الكبْوَة المصرية المعاصرة.

☆☆☆☆☆